الدرية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

التشبيه التمثيلي في سورة النور

إعداد الدكتور
عبد الرحمن بن أحمد عبد الله المقري

العدد الرابع عشر - الجزء الأول - ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد والظاء سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه الذين أحبّوا الفصاحة والبيان، وحملوا بلاغة القرآن وفصاحة سيد الفصحاء، صلاة الله وسلامه عليهم جميعا، وعلى من سار على نهجهم واستنّ بسنتهم من الأولين والآخرين، وبعد:

فإن القرآن الكريم نور الهدى، ومنوال الفصاحة والبيان، عرفه من عرفه وجهله من جهله.

كيف لا!! وهو أعظم ما ينبهر به العالمون والمتعلمون والجهّال، وأحلى ما سمعه الشعراء والأدباء، يزين الحديث نُبْلا وكرامة، ويزيد الإنسان صفاء ورونقا وكمالا.

فهو النور المبين الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾. سورة النساء، الآية [١٧٤].

فهو يزيد الإنسان علما، ويلهمه رشدا، إذا عكف عليه وتدبره لاستخراج عناصر إعجازه وأساليب بيانه، لذلك اخترت ثلاث آيات من سورة النور لأبين أفانين جماله وتصاوير نسجه.

وقد جعلت كلّ آية منها مبحثا مستقلا، وأسميت الموضوع: [التشبيه التمثيلي في سورة النور].

والله أسأل أن يجعل ذلك خالصا لوجهه، ويغفر لي فيما زلّت قدمي فيه، فالإنسان يؤاخيه النقصان دائما، والكمال لله وحده.

خطة البحث:

تتكون من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس.

أما المقدمة فتشتمل على أهمية البحث القرآني ونظمه وسبب اختيار هذا الموضوع، والبحث الاشتقاقي اللغوي لكلمتي الشبه والمثل.

المبحث الأول: النظم القرآني في التشبيه التمثيلي في قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

المبحث الثاني: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

المبحث الثالث: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾.

ثم الخاتمة تتضمن خلاصة الموضوع.

ثم الفهارس تتكون من فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

بين التشبيه والتمثيل في اللغة:

هنالك شبه الإجماع على عدم وجود الفرق بين التشبيه والتمثيل في اللغة، فكلمات الشِّبه والشَّبه والشبيه مثل المثْل والمثل والمثيل وزنا ومعنى، وأن أشبهه وشابهه بمعنى ماثله فهما يؤديان نفس المعنى[١].

أما علماء البيان فقد تواطأت أقلامهم على أن التشبيه أعم من التمثيل، وأن التمثيل أخص منه، نتجت عن ذلك قاعدة في الفرق بينهما هي: كل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا.

فلا يقع التشبيه التمثيلي فيما يعرّف به التشبيه الخالص الصريح؛ لأن التشبيه التمثيلي قسم من قسمي وجه الشبه في تقسيم التشبيه.

فالمتأخرون اختلفوا فقط في تحقيق الفرق بين تشبيه تمثيلي وغيره.

وكل ما سبق يمثل آراء المتأخرين في تعاطيهم للتشبيه وقسيمه، كما سيتضح من خلال استعراض بعض الآراء في ذلك.

التشبيه عند القدماء

تناول القدماء التشبيه لكن يبدو هذا التناول تائها في بحبوحة الدراسات الأخرى؛ كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد، ثم استقر واستقلّ عند ابن المعتز[٢].

فالجاحظ: في كتابه (الحيوان) نجده قد استعمل كلمتي التشبيه والمثل بمعنى واحد، يقول في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾(٣): " فزعموا أن

---

(١) ينظر: كتاب العين: (٤٤/٣) والصحاح: (٢٢٣٦/٦).

(٢) ينظر: التشبيه التمثلي في الصحيحين: (١٦).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٧٥).

هذا المثل لا يجوز أن يضرب بهذا المذكور في صدر هذا الكلام"[١].

فسمّى هذا التشبيه المثل، وهو تمثيل؛ لأنه مركب ووجهه متأول[٢].

ويقول أيضا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[٣]: "فقال أهل الطعن: فكيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه"[٤].

هكذا سمى الجاحظ التشبيه الوارد في هذه الآية مثلا، ومن التشبيه الصريح باتفاق[٥].

فالجاحظ له لفتات بارعة كثيرة في استعمال كلمتي التشبيه والمثل، وهو كثير العناية بالصور المركبة التي تتعدد عناصرها وأجزاؤها، وكثير الاهتمام بالملاءمة بين طرفيها قصدا لوضوح وجه الشبه كما في الآية السابقة وبعض الأبيات التي حلّلها[٦].

وقد أبدع أيضا في ذكر الأصول التي يشترك فيها التشبيه غير التمثيلي والتمثيلي؛ حيث يرى أن التشبيه: أن تشبه الشيء بالشيء، لا يعني مشاركته في جميع الصفات، إنما يكون الشبه من جهة وقوع الاشتراك في صفة أو صفات تجمع بينهما مع بقاء كل على هيئته الخاصّة، يقول: "وقد يشبّه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر،

---

(١) الحيوان: (٢/٢٦٦).

(٢) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين، ص: (١٦).

(٣) سورة الصافات: (٦٤-٦٥).

(٤) الحيوان: (٦/٤٢٥).

(٥) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين، ص: (١٧).

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص: (١١).

وبالأسد والسيف، وبالحيّة وبالنّجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان"[١].

فكلمتي التشبيه والمثل يتبدلان الدلالة في استعمالات الجاحظ.

أما ابن قتيبة فقد تناول محاسن التشبيه في عنوان مستقلّ، ولا نجد له إحساسا بالتشبيه التمثيلي، لكن يلحظ من خلال تناوله للتشبيهات أنه قدم معظم أمثلته من التشبيه المركب[٢].

أما المبرد فقد كان له طول النفس في دراسة التشبيه، ولم يكن يفرق بين التشبيه الصريح والتشبيه التمثيلي، بل يسمي التشبيه تمثيلا، يقول المبرد: "ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب"[٣]

ويقول في قوله تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٤].

" إنما يمثّل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها، فكيف يقع التمثيل بها"[٥].

فالآية من التشبيه الحقيقي الصريح، وليس التشبيه التمثيلي، لكن أطلق عليها التمثيل.

أما ابن المعتزّ فقد استطاع بفطنته الفذة تخليص البلاغة العربية من

---

(١) الحيوان: (١/ ١٣٨).

(٢) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين: (٣٤/٢٧).

(٣) الكامل في اللغة والأدب: (٣/ ٢٥).

(٤) سورة الصافات، الآية: (٦٥).

(٥) الكامل في اللغة والأدب: (٣/٧٠).

الفنون التي احتلطت بها.

فقد تحدث عن فنون البديع في كتابه ردّا على المحدثين الذين يدّعون الأسبقية إلى هذه الفنون، فقد تحدث عن محاسن الكلام وتناول الفنون التي تندرج تحتها؛ حيث كان منها التشبيه، لكن دراسته للتشبيه كانت بإيجاز، وقد استعمل مصطلح التشبيه للتشبيه الحقيقي والتشبيه التمثيلي(١).

أما التشبيه عند ابن طباطبا العلوي فقد تطورت دراسته فصارت أكثر وضوحا، حيث استلهم عبد القاهر الجرجاني من دراسته في تقسيمه التشبيه إلى صريح وتمثيل، كما سيأتي.

تناول التشبيه في صور عدة في كتابه لكن كان يسميها جميعا بالتشبيه، وللتمثيل فيها نصيب(٢).

ونرى قدامة قد فطن إلى أن المثل إذا جاء على سبيل المجاز كان مثلا؛ لأن إجراء التمثيل على سبيل الاستعارة التمثيلية ليس بعيدا عن إجراء التمثيل على التشبيه التمثيلي من حيث إن التشبيه أصل الاستعارة(٣).

وهكذا نرى التشبيه عند الرماني قد تناول التشبيه، من خلال دراساته، حيث تعدّ أول دراسة تشير إلى جذور التمثيل قبل عبد القاهر الجرجاني إشارة قوية(٤).

أما أبو هلال العسكري فقد تناول أكثر دراسات السابقين في التشبيه مع بعض الإضافات ولم يكن يفرق بين التشبيه والتمثيل، بل كلا

---

(١) ينظر: البديع لابن المعتز، ص: (٢٢، ٦٢).

(٢) ينظر: عيار الشعر، ص: (٢٥، ٣٢، ٣٣، ٢١١).

(٣) ينظر: نقد الشعر، ص: (٣٦-٧٥).

(٤) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين، ص: (٥).

المصطلحين في استعماله واحد[١].

فالتشبيه التمثيلي من خلال الدراسات المستفيضة التي قامت قبل عبد القاهر الجرجاني لم تتحدد معالمه، ولم تتضح جذوره، بل هي مجرد أحاسيس قدمت مساعدات وابلة في تطوير التشبيه التمثيلي فيما بعد[٢].

عبد القاهر الجرجاني والتشبيه التمثيلي:

ظهر جليا من خلال الدراسات السابقة أن عبد الجرجاني قد استفاد ممن درسوا التشبيه قبله، فكان يعدّ أول من وقف عند التشبيه التمثيلي الذي هو قسيم التشبيه الصريح[٣].

فقد حاول في بيان الفرق بين التشبيه الصريح وبين التشبيه التمثيلي، وسأوجز الكلام في ذلك.

استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يبيّن خصائص التشبيه التمثيلي ومميزاته، وعالجه معالجة يتصل كثير منها بأحوال النفس، كما أنه توصل من خلاله إلى خصائص بلاغية ذات قيمة في إدراك أسرار البيان وتذوق عناصره[٤].

فتقسيمه التشبيه إلى الصريح وغيره قام على أساس النظر إلى وجه الشبه في الطرفين، وقد استنتج من خلاله نتائج ذات قيمة جرى عليها بعض من جاء بعده.

---

(١) ينظر: الصناعتين، ص: (٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٥) والتشبيه التمثيلي في الصحيحين، ص: (٥١).

(٢) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين، ص: (٥٢).

(٣) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين، ص: (٥٥).

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص: (٥٥).

فقسّم التشبيه من حيث الحيثية المذكورة إلى التشبيه الصريح والتشبيه التمثيلي، ويهمّني في هذه الدراسة تعريف التشبيه التمثيلي فقط؛ حيث عرفه بأنه هو ما لا يكون وجهه أمرا بيّنا بنفسه، بل يحتاج تحصيله إلى تأوّل(١).

وتحدث عن أضرب التمثيل ومواقع تأثيره وأثره في النفوس، وأسباب تأثيره، فقد أعطى وكفى، واستوفى المسائل المتعلقة بالتشبيه التمثيلي، فكل من جاء بعده إما عالة عليه في إعادة كلامه، أو في اختصاره.

التشبيه التمثيلي عند المتأخرين:

والتشبيه التمثيلي عند السكاكي إذا كان وجه الشبه عقليا غير حقيقي وكان مركبا(٢).

ويرى الخطيب القزويني أن التشبيه التمثيلي ما كان وجهه منتزعا من أمور متعددة سواء كان حسيّا أم عقليّا(٣).

فقد اتفق عبد القاهر والسكاكي والخطيب على أن وجه الشبه إذا كان مفردا حسيّا أو عقليّا حقيقيّا فهو غير تمثيلي.

أما إذا كان الوجه مفردا عقليّا غير حقيقي فهو تمثيل عند عبد القاهر، وخالفه السكاكي والخطيب.

وإذا كان الوجه مركبا حسيا فعند الخطيب تمثيل وغير تمثيل عند عبد القاهر والسكاكي(٤).

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة، ص: (١١).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي، ص: (٣٣٥)، ودراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر الجرجاني، ص: (٢٦).

(٣) ينظر: الإيضاح مع البغية: (٣/٤٣٠).

(٤) ينظر: دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر الجرجاني، ص: (٢٦).

المبحث الأول: النظم القرآني في التشبيه التمثيلي في قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]

الكلمات الغريبة:

المشكاة: فرجة في الجدار مثل الكوّة لكنها غير نافذة[2].

دريّ: مضيئ[3].

لا شرقية ولا غربية: لَا شرقية كلهَا، وَلَا غربية كلهَا، هِيَ شرقية وغربية، وَهُوَ أحسن مَا يكون من الشّجر تطلع عَلَيْهَا الشَّمْس[4].

تتجلى في هذه الآية الجلالة والعظمة والروعة المتمثلة في المثل المضروب للمؤمنين، فقد اعتاد النظم القرآني على استمداد عناصره الفنية من الطبيعة وبخاصة في التشبيهات للدلالة على سر خلوده[5].

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾.

---

(١) سورة النور، الآية: (٣٥).

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن – للكواري: (٢٤/ ٣٥).

(٣) ينظر: تأويلات أهل السنة: (٥٦٦/٧)، والتبيان في تفسير غريب القرآن، ص: (٢٤٥).

(٤) ينظر: ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، ص: (٣٧٨).

(٥) ينظر: من بلاغة القرآن، ص: (١٥٠).

سيق للاستئناف ليدل على التقرير البياني المشعر بأن الله غاية في الكمال.

وإضافة النور إلى السموات للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له، وغاية شموله بكل ما يليق به من الأمور التي لها مدخل في إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله من الأجرام العلوية والسفلية.

وقيل على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات.

وقيل على تعلق البيان بأهلهما[١].

وحمل التنوير على إخراجه تعالى للماهيات من العدم إلى الوجود فلا يلائم المقام على حسن النظم.

فنوره الفائض على الموجودات صفته كصفة المشكاة؛ أي: كوّة نافذة في الجدار في الإنارة في هذه الكوة مصباح؛ سراج ثاقب ضخم أو الفتيلة المشتعلة، وهذا المصباح في زجاجة للدلالة على صفاء الصورة وزهوّ هذا النور، وهذه الزجاجة كأنها كوكب دريّ متلألئ وقّاد، يشبه الدرّ في الصفاء والزهرة، وإعادة المصباح والزجاجة مرتين بالتعريف والتنكير للتفخيم ورفع شأنها وإعلاء مكانها؛ وذلك بأسلوب التفسير بعد الإبهام، وأثبت ما بعدهما بأسلوب الإخبار للدلالة على القصد الأصلي[٢].

هذا المصباح ابتدأ تقوبه من شجرة الزيتون، وهي مباركة كثيرة المنافع، وقيل مباركة؛ لأنها تنبت في الأرض المقدسة، وقيل بورك فيها سبعون نبيّا، ومنبت هذه الزيتون الشام، وفيه ينبت أفضل أنواع الزيتون، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيض، وأنه لتلألئه يكاد يضيئ من غير نار، نور على نور.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: (١٦٥/٦).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود: (١٦٥/٦).

فصورة المصباح إذا كانت في مكان متضايق كالمشكاة كانت أضوأ له وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع؛ فإن الضوء ينبثّ فيه وينتشر، والقنديل أعون شيء على على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه وبهاؤه، يهدي الله لهذا النور الثاقب من يشاء من عباده[١].

قد اختلف في الصورة البيانية التي جاءت في هذه الآية، فقيل: هي تشبيه جملة بجملة، لا يقصد فيها إلى تشبيه جزء بجزء، ومقابلة شيء بشيء، أو مما قصد به ذلك؛ أي: مثل نور الله الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة الوهاجة على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس؛ أي: مثل نور الله في الوضوح والظهور كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر.

وقيل هي من التشبيه المفصّل المقابل جزءا بجزء، لكن بالنظر إلى هذه الأقوال نرى أن هذه الصور كلها لم تخرج في إطار كونها تمثيلية[٢].

ولو: تقتضي ترتيب ما كان لا ينبغي أن يقع لامتناع الترتيب في العادة وللاستقصاء حتى يدخل ما لا يقدر دخوله فيما قبله[٣].

والمثل في هذه الآية في غاية الروعة والكمال وقد جاء في موقعه وأدّى وظيفته الرائعة؛ حيث إنه تمثيل للهدى الذي دلت عليه الآيات البيّنات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة.

أو إنه تمثيل للهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وتشبيهه به أروع وأوفق من تشبيهه بالشمس، أو إنه

---

(١) ينظر: الكشاف: (٢٤/٣).

(٢) ينظر: تفسير البحر المحيط: (٤٤/٨-٤٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق: (٤٧/٨).

تمثيل لما لنور الله من أثر في قلوب المؤمنين من المعارف والعلوم فهو نور مثل نور المشكاة المنبثّ فيها من مصباحها.

أو إنه تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الداركة الخمس المترتبة التي أنيط بها المعاش والمعاد[١].

والمثل الوارد في الآية ضرب للمؤمنين في تشبيه نور الله الذي يلقيه في قلوب المؤمنين بمصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة؛ إما بوضعه في مشكاة غير نافذة لتكون أجمع للبصر[٢].

وقع في هذه الآية الترديد أربع مرات.

فالتشبيه في القرآن تعود فائدته إلى المشبه تصويرا له وتوضيحا، ولهذا كان المشبه به دائما أقوى من المشبه وأشد وضوحا[٣].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (١٠٧/٤).

(٢) ينظر: الإتقان: (١٤٥/٣)، ومعترك الأقران: (٢٠٥/١).

(٣) ينظر: من بلاغة القرآن، ص: (١٥٠).

المبحث الثاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[1]

الكلمات الغريبة:

السّراب: ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار[2].

القيعة: هي والقاع قيل: هما بمعنى واحد، وهي المستوي من الأرض. وقيل القاع جمع قيعة[3].

هذا تمثيل ضرب للكفار، وقد اجتمع فيه حسن النظم وعذوبة اللفظ، وكثرة الماء والدلالة الصحيحة، فهو تشبيه أخرج ما يدرك بالذهن في صورة ما يدرك بالحس؛ حيث شبّه أعمال الكفار وهم يأملون نفعها يوم القيامة يأتون في ذلك اليوم، فتكون أعمالهم هباءً منثوراً، بصورة سراب في صحراء الذي خيل للظمآن أنه ماء، فتتعلق به نفسه، فيجدّ في سيره ليدركه ليقضي ما ألمّ به من شدة الظمأ وحرقه، فيصلُ إلى هذا المكان فيصادفه صفرا، لا شيء فيه، فتزداد نفسه هلعا، وحزنا واستشرافا للهلاك.

فهذه الصورة صورة ذهنية مقابل صورة واقعية محسوسة، فيها معاناة ومفاجأة.

---

(١) سورة النور، الآية: (٣٩).

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: (٢٤٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص: (٢٤٥-٢٤٦).

والجامع بين الطرفين: بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة[١].

وعن هذا الجامع قال أبو موسى -حفظه الله-: "ولوجازة هذه العبارة وسدادها غلبت عقول أهل العلم، فكرروها في كلامهم"[٢].

وتمتاز هذه الصورة بالدقة في أجزاء التي تكونت منها، وهذه الأجزاء أضفت عليها اللطافة وشمول الدلالة والإيحاء الرائع، وجعلت دلالاتها قمة في تصوير المغزى المرجوّ من وراء هذه الصورة.

فانظروا إلى عذوبة اللفظ وكثرة الماء وسعة الدلالة في الآية الكريمة، فقد أضيفت الأعمال إلى الكفّار لتعييبهم بها، ونكّر (سراب) للدلالة على التهافت والحقارة وعدم الفائدة في الأعمال التي عملوها.

وفي (يحسبه الظمآن) تجدد لطلب الماء واستمرارية هذا الطلب الذي بلغ منتهاه عند الظامئ، وتنكير (ماء) يفيد العموم؛ لأن الظامئ وهو قد استشرف على الهلاك ينقضّ على أي نوع وقعت يده عليه من جنس الماء، فهو يريد أي ماء يلاقيه ليروي غلّته، ثم قال: (ووجد الله عنده) لتهيئة الكلام.

وحتى : قيد يدل على غاية شاقة ومعاناة طويلة شديدة، كادت تهلك صاحبها.

ثم انتهت هذه الرحلة الشاقّة، وهذا الصراع مع الوجود في طلب قضاء الأرب إلى العدم، فبدلا من أن يجد ما يقصده، وجد ما لم يتوقعه، وهو الله -عز وجل-، وفي ذلك من الرهبة ما فيه، والفاء في (فوفاه حسابه) إشارة إلى سرعة الكفح ونزول العذاب وإسناد التوفية إلى لفظ الجلالة للدلالة على

---

(١) ينظر: ثلاث رسائل، ص: (٨).

(٢) الإعجاز البلاغي، ص: (١٠١-١٠٢).

شدة الغضب وتفيد مع قوله تعالى (حسابه) الإنصاف والعدالة[١].

الآية فيها وعيد شديد وموعظة بليغة؛ حيث إن أعمالهم الحسنة التي يعملون لا يجدون ثوابها في الآخرة، بل العقاب العظيم الذي عظمت حسرته وتناهى غمّه، فهو تشبيه في غاية الحسن.

وهذا التشبيه في الأعمال الحسنة، والآية التي تأتي بعدها في تشبيه الأعمال القبيحة بالظلمات[٢].

وهذا التشبيه آكد في الأخبار لما فيه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب والعذاب السرمدي[٣].

كما أنه رسم لنا حال الكفار ومآلهم في مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة، وقوله (والله سريع الحساب) تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع[٤].

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص: ١٠٣-١٠٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٢٤-٤٠٠)، وتفسير البحر المحيط: (٥٠/٨).

(٣) ينظر: تفسير البحر المحيط: ٥٢/٨-٥٣)

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: (٢٥٢١/٤).

المبحث الثالث: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[١]

بحر لجيّ: ذو لجج، واللجة معظم البحر[٢].

لما ذكر الله تعالى حال الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم ووصفهم بما وصفهم من الأعمال النافعة في الآخرة أعقب ذلك بذكر مقابلهم الكفرة وأعمالهم، فمثّل لهم ولأعمالهم مثلين، المثل الذي يقتضي بطلان أعمالهم في الآخرة، وأنهم لا ينتفعون بها. والثاني: يقتضي حالها في الدنيا من التمادي في الضلال والظلمة[٣].

والتشبيه الأول آكد في الأخبار من الثاني فقد أتبعه بالثاني للتنبيه لعلهم يرجعون إلى الإيمان ويتركون الأعمال القاتمة[٤].

فـ(أو) إما عطف على (كسراب) فهي للتخيير؛ لأن أعمالهم لاغية لا منفعة لها كالسراب، ولأنها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجّ البحر والأمواج والسحاب.

وإما للتنويع: فأعمالهم الحسنة كالسراب وأعمالهم القبيحة فكالظلمات.

وإما للتقسيم باعتبار وقتين: فأعمالهم كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة[٥].

---

(١) سورة النور، الآية: (٤٠).

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن للكواري، ص: (٤٠/٢٤).

(٣) ينظر: تفسير البحر المحيط: (٥٠/٨).

(٤) ينظر: المصدر السابق: (٥٣/٨).

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي: (١٠٩/٤).

وشبه أعمالهم القبيحة في الدنيا بظلمات متراكمة؛ ظلمة البحر، وظلمة الأمواج المتلاطمة، إضافة إلى ظلمة البحر، والظلمة التي أحدثها السحاب والغيوم. فهو تشبيه في غير مقابلة في المعنى[١].

ويرى التقابل في هذا التشبيه: فالظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة، والبحر اللجي صدر الكافر وقلبه، والموج الضلال والجهالة التي غمرت قلبه، والفكر المعوجّة، والسحاب شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان[٢].

فقوله: (في بحر لجي) صفة لظلمات متعلق بمحذوف و(يغشاه موج) صفة أخرى لبحر إذا أعيد الضمير على بحر وهو الظاهر[٣].

وقوله (ظلمات بعضها فوق بعض) للمبالغة وبيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله (نور على نور) بيان لغاية قوة النور.

وقوله: (ومن لم يجعل الله له نورا إلخ) اعتراض تذييلي جيء به لتقدير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصّل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره، وإيراد الموصول للإشارة بما في حيز الصلة إلى علّة الحكم؛ أي: من لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن هداية خاصة مستتبعة للاهتداء حتما، ولم يوفقه للإيمان به فما له هداية ما من أحد أصلا[٤].

---

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط: (٥٤/٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٥٠/٨).

(٣) ينظر: تفسير اللباب: (٤١٤/٨).

(٤) ينظر: تفسير أبي السعود: (١٨١/٦) والتحرير والتنوير: ٢٥٥/١٨).

فهذه الآية تمثل المشهد الثاني الذي رسمه الله للكفار وأعمالهم القاتمة في الدنيا، وفيه تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب، ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي، موج من فوقه موجو من فوقه سحاب، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض، حتى إذا أخرج يده أمام بصره، فلا يراها لشدة الرعب والظلام.

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفيّاض في الكون[1].

(١) ينظر: في ظلال القرآن: (٤/٢٥٢١).

الخاتمة

يستعرض هذا البحث جانبا من الجوانب الفنية التي يمتاز بها النظم القرآني؛ من خلال بعض الآيات التي فيها التشبيه التمثيلي، فقد بدأ باستعراض مباحث القدماء والمتأخرين في التشبيه، سواء في اللغة، أم في اصطلاح أصحاب الفنّ؛ حيث تقرر في اللغة أن المثل ومشتقاته والتشبيه ومشتقاته يتبادلان الدلالة الواحدة.

وتقرر في الاصطلاح أن التشبيه أعم من التمثيل، وأن المتأخرين اختلفوا في تحقيق الفرق بين تشبيه تمثيلي وغيره، وأن التشبيه في بحوث القدماء سُلكَ به مسالك عديدة؛ فبعضهم أشار إلى لمسات تآزرت في التفريق بين التشبيه والتشبيه التمثيلي عند عبد القاهر الجرجاني والذين جاؤوا بعده من المتأخرين، فكلام القدماء منارات للمتأخرين في إنضاج هذا الفن المؤثر في أسلوب التشبيه.

رأينا أثر هذا الأسلوب في النظم القرآني، وكيف تتجلى فيه العظمة والروعة والجلالة، فقد استمد عناصره الفنية من الطبيعة للدلالة على سر الخلود، وما بطن فيه من الأساليب الفنية؛ كالإشارة والاستئناف البياني، ووضعه الكلمات والصور في مواضعها اللائقة بها، والتعريف والتنكير، والتفسير والإبهام، والإخبار، والكناية، وغيرها من الأساليب البيانية التي تَزيد الكلام جمالا، وتُضفي عليه بهجة وكمالا؛ للدلالة على أن هذا القرآن كلام رب العالمين، لا يضارعه كلام المخلوقين ولا يدانيه تشدق المتشدقين، وأنه غاية في الكمال.

ثبت المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٢. أسرار البلاغة، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٣. الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، للعلامة الدكتور محمد محمد أبو موسى. مكتبة وهبة. القاهرة.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

٥. البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٦. البديع في البديع، المؤلف: أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ)، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٧. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٨. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٩. التشبيه التمثيلي في الصحيحين، إعداد الطالبة فائزة سالح، رسالة علمية لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية. ١٤٠٥هـ-١٤٠٦هـ.

١٠. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١١. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٢. التبيان في تفسير غريب القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: ٨١٥هـ)، المحقق: د ضاحي عبد الباقي محمد، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ.

١٣. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية. تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام. دار المعارف، مصر. الطبعة الثالثة.

١٤. الحيوان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

١٥. دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر الجرجاني....

١٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل ابن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

١٧. الصناعتين، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.

١٨. عيار الشعر، المؤلف: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي، أبو الحسن (المتوفى: ٣٢٢هـ)، المحقق: عبد العزيز بن ناصر المانع، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة.

١٩. تفسير غريب القرآن، المؤلف: كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، الناشر: دار بن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م.

٢٠. في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.

٢١. الكامل في اللغة والأدب، المؤلف: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٢٢. كتاب العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٢٤. اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

٢٥. معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٢٦. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٢٧. مفتاح العلوم، المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٢٨.من بلاغة القرآن فى التعبير بالغدو والأصال والعشى والإبكار، المؤلف: الدكتور محمد محمد عبد العليم دسوقي، رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٣/٨٦٠٦م.

٢٩.نقد الشعر، المؤلف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧هـ)، الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢ç.

٣٠. ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، المؤلف: محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد المطرز الباوَرْدي، المعروف بغلام ثعلب (المتوفى: ٣٤٥هـ)، المحقق: حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – السعودية/ المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٤٣٥
خطة البحث	٤٣٦
بين التشبيه والتمثيل في اللغة	٤٣٧
التشبيه عند القدماء	٤٣٧
عبد القاهر الجرجاني والتشبيه التمثيلي	٤٤١
التشبيه التمثيلي عند المتأخرين:	٤٤٢
المبحث الأول: النظم القرآني في التشبيه التمثيلي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا﴾	٤٤٣
المبحث الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾	٤٤٧
المبحث الثالث: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾	٤٥٠
الخاتمة	٤٥٣
ثبت المصادر والمراجع	٤٥٤
فهرس الموضوعات	٤٥٩